التواصل المعماري والفني بين تونس وطرابلس، جوامع بالمدينتين من العهدين الحسيني والقرمانلي: دراسة في الأوقاف والمعمار والفنون

أحمد السعداوي*

الملخص

يتناول هذا المقال[1] دراسة العلاقة الوطيدة بين إيالتي طرابلس القرمانلية وتونس الحسينية في مجالي العمارة والفنون وذلك من خلال دراسة أربعة جوامع كبرى أنشأت في عاصمتي الإيالتين، وهي: جامع الصبّاغين (1727) بتونس، وجامع أحمد باشا القرمانلي (1737) بطرابلس، وجامع يوسف صاحب الطابع بتونس (1814) وجامع مصطفى قرجي بطرابلس (1831). هذه الجوامع الأربعة تندمج ضمن مجمعات معمارية كبري مرتبطة في عمارتها بتقاليد محلية عريقة. يسعى البحث إلى فهم نوعية العلاقة التي كانت تربط الأنماط المعمارية والفنية التي تبلورت في الإيالتين المغاربيتين بعضهما ببعض ونوعية العلاقة التي كانت تربطهم بالفنون السائدة في مركز السلطنة العثمانية وكذلك ببلدان الجوار الأوروبية المتوسطية ولا سيما إيطالية القريبة جدا.

الكلمات المفاتيح: تونس الحسينية، طرابلس القرمانلية، الجوامع الكبرى، الوقف، المعمار، الزخرفة المعمارية، فن الباروك، القلالين.

Résumé

Cet article examine les relations étroites entre la Tripoli des Qaramanlis et la Tunisie des Husseinites dans les domaines de l'architecture et de l'art à travers l'étude de quatre grandes mosquées construites dans les capitales des deux régences : La mosquée des Teinturiers (1727) à Tunis, la mosquée Ahmed Pacha Qarmanli (1737) à Tripoli, la mosquée Youssef Saheb al-Tabaa à Tunis (1814), et la mosquée Mustafa Gurgi à Tripoli (1831). Ces quatre mosquées font partie de grands ensembles architecturaux très attachés aux traditions architecturales locales. Notre étude cherche à comprendre comment les formes architecturales et artistiques qui se sont élaborées dans les deux régences du Maghreb s'articulent entre elles et comment elles

* أستاذ تعليم عال، جامعة منوبة.

[1] قدمت هذه الورقة البحثية في الملتقى التونسي الليبي المنعقد بمدينة غدامس فيما بين 24 و27 ديسمبر 2024.

s'articulent avec les arts stambouliotes du centre de l'Empire ainsi qu'avec les pays voisins euro-méditerranéens et notamment l'Italie, toute proche.

Mots clés : Tunis des Husseinites, Tripoli des Qaramanlis, les grandes mosquées, waqf, architecture, décor architectural, baroque, Qallaline

Abstract

This article examines the close ties between the Qaramanlis's Tripoli and the Husseinites's Tunisia in the fields of architecture and art through the study of four major mosques built in the capitals of the two regencies: The Teinturiers Mosque (1727) in Tunis, the Ahmed Pasha Qaramanli Mosque (1737) in Tripoli, the Youssef Sahib al-Tabaa Mosque in Tunis (1814), and the Mustafa Gurgi Mosque in Tripoli (1831). These four mosques are part of large architectural complexes closely linked to local architectural traditions. Our study seeks to understand how the architectural and artistic forms that developed in the two regencies of the Maghreb relate to each other and how they relate to the Istanbul arts of the center of the Empire as well as to neighboring Euro-Mediterranean countries, particularly nearby Italy.

Keywords: The Husseinites's Tunisia, the Qaramanlis's Tripoli, great mosque, waqf, architecture, architectural decor, baroque, Qallaline.

المرجع لذكر المقال:

أحمد السعداوي، «التواصل المعماري والفني بين تونس وطرابلس، جوامع بالمدينتين من العهدين الحسيني والقرمانلي: دراسة في الأوقاف والمعمار والفنون»، السبيل: مجلة التّاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية]، عدد 18، سنة 2024.

الرابط:

https://al-sabil.tn/?p=3079

تقديم

تميزت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الإيالتين الجارتين تونس وطرابلس بالمتانة خلال العهدين الحسيني والقرمانلي. نركز في هذه المقال على العلاقات في مجال العمارة والفنون حيث نستعرض أربعة جوامع كبري شيدها الحسينيون والقرمانليون في تونس وطرابلس خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن خلال هذه النماذج نحاول استيضاح بعض المصادر الجديدة التي يمكن توظيفها لدراسة هذا الصنف من المعالم، ولعل أهمها وثائق الأرشيف وخاصة رسوم الأوقاف، ونقف عند الإضافات التي تقدمها مثل هذه الوثائق لدراسة مسائل التحضر والعمارة. تكشف الوثائق الوقفية وكذلك الدراسة الميدانية أن الجوامع الأربعة تمثل وحدات ضمن مجمعات معمارية كانت عبارة عن مشاريع تعمير وتجديد للأحياء التي شيدت بها. وتكشف هذه المجمعات عن مميزات العمارة الدينية والرسمية في الإيالتين وتمكن من التعرف على نوعية العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين البلدين؛ وتبرز نقاط التماثل والاختلاف بينهما في مجالي العمارة والفنون؛ وتكشف كذلك عن بعض جوانب طبيعة علاقة الإيالتين بالعالم العثماني وكذلك المتوسطي المحيط بهما.

1. الجامع الجديد أو جامع الصبّاغين

بناه بتونس حسين بن علي التّركي مؤسّس الدّولة الحسينيّة التي حكمت البلاد طيلة أكثر من قرنين ونصف. بعد مرور عقدين على توليه الحكم شيّد حسين بن علي جامع الصبّاغين داخل باب الجزيرة وقرب دار عثمان داي. أورد حسين خوجة[2] أن بداية الأشغال كانت أوائل جمادى الأخرى سنة 24/1136 فيفري 1724، وانتهي من بناء الجامع والمدرسة في منتصف شعبان سنة 6/1139 أوت 1727. ونتبين من خلال وقفية الجامع الجديد والمدرسة والمكتب والترب الملحقة به أن هذه المنشئات شيدت مكان مبان تعود إلى بداية القرن السابع عشر وهي حمام لعثمان داي (1598-1610) وزندالة كانت تستعمل لحبس الأسرى النصارى وكنيسة وخمارات. اشترى الباي الحمام من ورثة عثمان داي واستولى على الزندالة بوثيقة استرعاء، وكانت تحتوي على بيوت للأسرى النصارى وكنيسة وخمارات، وأمر بهدم الزندالة وبقية المباني التابعة لها وبنى مكانها مجمعه المعماري.

[2] حسين خوجة، 1972، ص. 161.

صورة 1. جامع الصباغين بتونس شيده حسين بن علي مؤسس الدولية الحسينية سنة 1727. وألحق بهذا المعلم وحدات أخرى عديدة ومتنوّعة من حيث الأغراض والعمارة. وتكوّن جميعها مركبا معماريا مندمجا. المئذنة مثمنة تقلد مئذنة جامع حمودة باشا المرادي (1655).

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ورد في رسم حبس الجامع: "وقد كان مولانا هدم جميع الحمّام المبدأ بذكره (حمام عثمان داي) والزّنداله الموالية له في الذّكر وما هو من حقوقهما وما أضيف للحمّام من الفرناق، وأحدث في ساحة جميع ذلك مسجدا جامعا للصّلوات الخمس والجمعة والعيدين ذا أبواب وبصحنه مدرسة مشتملة على خمسة عشر بيتا وبإزاء الجامع من النّاحية الغربيّة تربة أعدّها لدفنه بعد العمر الطّويل، وبإزاء التّربة المذكورة من النّاحية الغربيّة تربة أخرى أعدّها لبعض محارمه، وميضأة مشتملة على كنف ومحلّ وضوء وغير ذلك مدخلها من المدرسة".

وتؤكد بذلك نصوص الوقف أن الجامع الجديد يندمج ضمن مجمع معماري شيد بغاية إعادة إعمار حي باب الجزيرة. وتكشف كذلك هذه النصوص عن بعض مكونات المجمع: المسجد والمدرسة ذات الخمسة عشر بيتا، والتربتان والميضأة والسبيل والمكتب. تضاف إلى هذه المباني الدينية والخيرية عديد المباني ذات الصبغة الاقتصادية المحبسة لصالح الأولى ومنها أسواق وحوانيت وفنادق وحمام الصباغين الذي شيد غير بعيد من الجامع ولازال يستقبل إلى اليوم المستحمين.

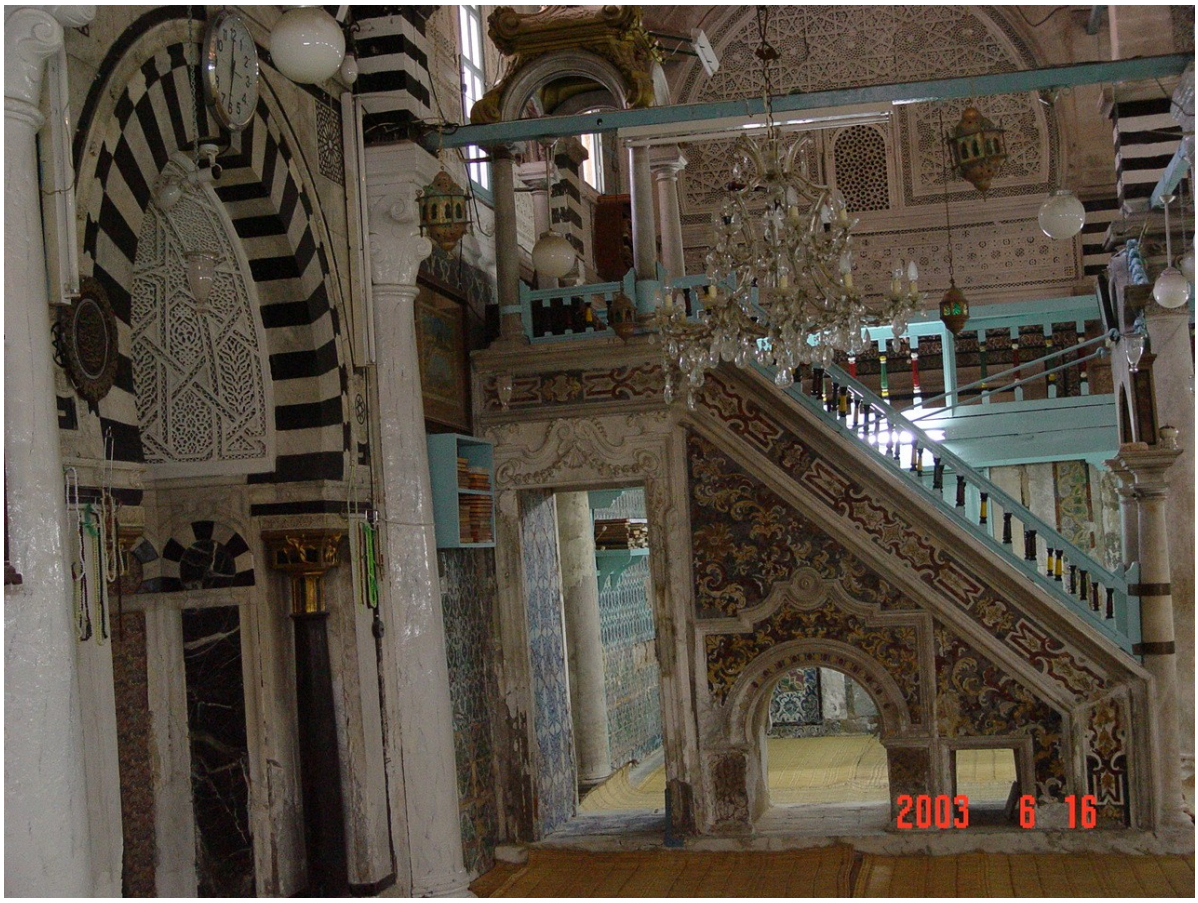

صورة 2. جامع الصباغين بتونس (1727). منبر يكسوه الرخام المحفور المطعّم بأحجار ملوّنة.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ونجد في نص الوقف معطيات ضافية حول مختلف المصاريف والرواتب المخصصة لتعهد وصيانة المباني ولإقامة الشعائر ولمختلف الوظائف؛ ومن هذه الوظائف وظيفة الائمة والمؤذنين وقراء القرآن ورواة الحديث والمدرسين والطلبة؛ ومن الوظائف أيضا تلك التي تتعلق بالصيانة والعناية والتنظيف وتؤكد الوثائق على النقيب وهو القائم "بشؤونه من كنس وفرش وحصر وحل وغلق وإيقاد مصابيح وغير ذلك من ضرورياتها".[3]

بني الجامع الجديد على نسق جامعي يوسف داي (1615) وحمّودة باشا (1655)، وهو يمثّل مجمّعا معماريا صغيرا، يشتمل على جامع وتربتين ومدرسة وكتّاب وسبيل. ينتمي المعلم من حيث المخطط والعمارة إلى التقاليد الافريقية التونسية العريقة ومع ذلك تتجلى فيه وبكل وضوح التّأثيرات العثمانيّة وذلك من خلال المنارة المثمّنة والمنبر الرّخامي وبلاطات الخزف الأزنيقي التي تكسو مساحات واسعة من جدران قاعة الصّلاة. أمّا التّأثيرات الإيطاليّة فنلمسها من خلال الرّخام الملوّن المحفور والمطعّم الذي يكسو المنبر، وكذلك من خلال نحت السّواري ونقش التّيجان المعمولة من الرّخام الأبيض المجلوب من مقاطع كراره.

[3] مجمل نصوص الوقف منشورة فب كتابنا **تونس زمن حسين بن علي**، 2013.

صورة 3. جامع الصباغين بتونس. منبر يكسوه الرخام المحفور المطعّم بأحجار ملوّنة تمثّل رسوما نباتية متأثرة بالفن الباروك السائد بإيطاليا في ذلك العصر.

المصدر: صورة أ. السعداوي

صورة 4. جامع الصباغين بتونس (1727)، جلبت الأعمدة والتيجان من إيطاليا وهي تنتمي إلى فن الباروك وتتميز بأوراقها المتساقطة.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ولعل ما يميز هذا الجامع عن سائر جوامع الإيالات العثمانية المغاربية الزخرفة الخزفية التي تكسو جدران بيت الصلاة. هذه البلاطات التي نسميها حسب المصطلح الشامل بالإزنيقية لم تصنع في مصانع مدينة إزنيق التركية، التي كانت خلال التاريخ على غاية من التدهور، بل جلبت من المصانع الجديدة التي أحدثها السلطان أحمد الثالث في تكفور سراي بالضواحي الشمالية لمدينة إسطنبول سنة 1719، ولتشغيل الورشات الخزفية استقدم السلطان ووزيره إبراهيم باشا عددا من الخزفيين من إزنيق. استمر إنتاج الخزف بهذه المصانع طيلة القرن ورغم شبه إنتاج تكفور بالخزف الإزنيقي العريق فإنه أقل إتقانا ويحمل أحيانا عناصر وموضوعات أوروبية. تتميز البلاطات المستخدمة في جامع الصباغين بالتنوع وتحمل موضوعات زخرفية عثمانية تقليدية منجزة بجودة متوسطة.

صورة 5 و6. جامع الصباغين بتونس (1727). به نماذج من الخزف العثماني. جلبت البلاطات من المصانع الجديدة التي أحدثها السلطان أحمد الثالث في تكفور سراي بالضواحي الشمالية لمدينة إسطنبول سنة 1719، ولتشغيل الورشات الخزفية استقدم السلطان عددا من الخزفيين من إزنيق.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

يتميز هذا الجامع أيضا برخامه الذي ينتمي إلى فن الباروك. ومن ذلك الأعمدة والتيجان المجلوبة من كراره الإيطالية؛ تحلي التيجان الأوراق المتساقطة التي تميز الفن الباروك. كما يفاجئ زائر المعلم بالمنبر الرخامي التي يجاور محراب الجامع. كسي المنبر بالرّخام المحفور والمطعّم بالحجرة الملونة وتنمي زخرفة المنبر إلى فن الباروك الأصيل؛ وكنا نعتقد أن هذا المنبر هو من صنع أسرى إيطاليين كانوا يعملون في ورشات الرخام التونسية، لكن تبين لنا، بعد اكتشاف وثيقة جديدة في أرشيف مدينة جنوا، أن مصانع الرخام الإيطالية ترسل أحيانا حرفيين وكميات من الرخام الملون لإنجاز مثل هذه الأعمال الفنية. وهذا ما سوف نعود إليه خلال حديثنا عن منبر جامع أحمد باشا بطرابلس الذي يحمل نفس الزخرفة ويبدو أنه من صنع نفس الورشة الجنوية.

2. جامع أحمد باشا القرمانلي

يعتبرهذا الجامع من أعظم الإنجازات المعمارية التي أبدعتها العمارة اللّيبية في العصر الحديث. بناه مؤسّس الدّولة القرمانلية التي حكمت الولاية أكثر من قرن (1711-1835). يمثّل هذا المعلم بعناصره المعمارية المختلفة مجمّعا على النّمط العثماني، ويشتمل ثلاثة عناصر متكاملة ومختلفة الأغراض. يتوسّط المسجد المجمّع وتنتصب المدرسة ذات الطابقين في الجهة الشمالية الغربية، أمّا الترب فنجدها في الجهة المقابلة أي الجنوبية الشرقية بالإضافة إلى مرافق أخرى ومجموعة من الحوانيت المحبسة على المباني الدينية.

نتبين من خلال وقفية الجامع المدونة في أواسط رمضان سنة 3/1153ديسمبر 1740 أن "أبا العباس سيدي أحمد باشا ابن المرحوم القائد يوسف القرمانلي، صاحب كرسي طرابلس المحروسة"، "أنشأ الجامع العظيم الجديد الغني لشهرته عن التحديد، الكائن بداخل مدينة طرابلس". وحبس ووقف عليه عديد الرباع والعقارات، يعددها النص ويحدد مكانها بدقة[4].

[4] أنظر مقالنا الصادر حديثا حول جامع أحمد باشا (Ahmed Saadaoui, 2021).

صورة 7. جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس (1737). وهو مجمّع معماري مندمج "كليات". يتكون من الجامع، كوحدة معمارية أساسية، تتمّمه وحدات أخرى أهمّها الميضأة والتّرب والحمّام والأسواق والحوانيت ومخازن ومرافق أخرى.

المصدر: مخطط ميسانا (MESSANA, 1977, p. 155)، أعاد رسمه حسام الدين العثماني.

ويضيف نص الوقف معطيات تتعلق بالوظائف المرتبطة بالجامع والمدرسة : الإمام، المؤذنون، القيمون، المكلفون بالتنظيف وتوفير الماء، الوكيل، المدرسون وطلبة العلم، ويحدد مرتبات كل منهم "وقد أشهدنا على نفسه السيد الأمير المذكور، أنه عين للإمام الذي يؤم بالجامع المذكور ستون عثمانيا كل يوم، ولرئيس المؤذنين خمسة وثلاثون عثمانيا كل يوم، وللذي يليه مثله، وللمؤذن الثالث ثلاثون عثمانيا، ولكل واحد من المؤذنين الباقين عشرون عثمانيا، ولكبير القيمين خمسة وعشرون عثمانيا كل يوم، وللقيم الثاني عشرون عثمانيا في اليوم، ولثالث القيمين عشرون عثمانيا، والذي يجبد الماء للمتضوين خمسة وعشرون عثمانيا، ولجباد الماء للكنيف والقائم بكنسه عشرون عثمانيا كل يوم،

والوكيل على الجامع أربعون عثمانيا كل يوم، ولكل واحد من المدرسين الاثنين الملازمين لقراءة العلم وتعليم الطلبة الملازمين وغيرهم ستون عثمانيا كل يوم، ولكل واحد من طلبة العلم الملازمين لبيوت المدرسة وعدد بيوتها أربعة وثلاثون بيتا لكل صاحب بيت عشرون عثمانيا في كل يوم، وما فضل من المحصول بعد هذه الوظائف المعينة يكون موقوفا بيد الناظر فيه عدّة لما يحتاج المسجد إليه لما يخشى من نقص غلته وانحطاط أكريته، وإن اتسع الحال لشراء أصل يلحق بحبس الجامع المذكور."

نلاحظ استعمال العملة العثمانية لخلاص المرتبات وهذا يؤكد ارتباط السلطة القرمانلية الوثيق بمركز الخلافة رغم الكثير من الاستقلالية التي ميزتها بالنسبة لباشوات الفترة السابقة، التي يطلق عليها الباحثون تسمية "العصر العثماني الأول". كذلك يحدد نص الوقف عدد بيوت المدرسة عند تأسيسها؛ أربعة وثلاثون بينا يسكن كل بيت منها طالب، يتلقى الطلاب العلوم من مدرسين قارين. لا يشر الوقف إلى ضرورة أن يكون الطلبة من القادمين على المدينة من سكان دواخل البلاد مثلما الحال في وقفيات مدارس مدينة تونس.

صورة 8. جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس (1737). المئذنة مثمنة تذكر بمآذن مدينة تونس خلال العصر العثماني.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ويؤكد كذلك نص الوقف أن جامع الباشا يندمج ضمن مشروع مجمع معماري يهدف إلى إعادة إعمار الحي القريب من الحصار أو السريا الحمراء ومن الأسواق المركزية للمدينة. ويكشف عن عديد الأسواق والحوانيت والفنادق التي أنشأت في أماكن متفرقة من المدينة وخاصة قرب الجامع نذكر منها "**جميع** السوق المشتمل على اثنين وثلاثين حانوتا صفين ميمنة وميسرة قبلية وجوفية [...]، وهو الذي أنشأه المحبس المذكور بداخل المدينة المذكورة، يحده قبلة سوق العطارة المعروف بسوق اليهود وشرقا طريق وجاهة باب خندق الحصار وجوفا الجامع المذكور والتربة التي شيدها السيد الأمير المذكور وطائف من السوق الثاني الجديد وغربا طريق سوق الصاغة وشهرته الآن بسوق العطارة الجديد شهرة كافية عن التحديد." ويذكر النص سوق ثانية كانت ضمن المجمع المعماري، وهي "**جميع** السوق الجديد المحدود بطائف منه أعلاه وهو الذي السيد الأمير بناه وحكم تأسيسه ونشأه، جعل الله الجنة منزله ومأواه، المشتمل على ثلاثين حانوت صفين ميمنة وميسرة : فستة عشرة مفتحهم شرقيا واثنا عشر مفتحهم غربيا وواحد قبلي والثاني قرب بابه الغربي يفتح جوفيا يحده قبلة سوق العطارة المحبس المذكور وشرقا الجامع المذكور وجوفا الربع القديم وغربا طريق سوق الصاغة"، ثم يضيف حوانيت أخرى تكمل المعلم، منها **التسعة** حوانيت الملاصقين للجامع المذكور ببابه الشرقي، شرقيي المفتح بطريق سوق الخضارة، وهم صف واحد"؛ **مع القهوة** التي أسسها السيد الأمير المذكور، المجاورة للجامع وصف الحوانيت المذكورين، ويحد صف الحوانيت المذكور قبلة سوق اليهود وشرقا الطريق التي بها المفتح وغربا الجامع وجوفا القهوة، ويحد القهوة طريق وبها المفتح وشرقا طريق الحانوتين الذي أسفلها وجوفا سوق الربع وغربا كذلك."

صورة 9. جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس، جلبت الأعمدة والتيجان من مقاطع كراره بإيطاليا.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

من الناحية المعمارية تحليل القباب العديدة التي تغطي بيت الطلاة على العمارة التقليدية الليبية، من ناحية أخرى يدفعنا الشبه المذهل بين الجامع الليبي وجامع الصباغين بتونس إلى الاعتقاد بأن فريق العمل الذي بنى جامع طرابلس يضم بنائين وحرفيين سبق أن شاركوا، قبل عشر سنوات، في بناء المسجد التونسي.

كما يتميز المعلم بثراء زخرفته الجصية والجليزية والرخامية. هناك شبه كبير بين الزخرفة الجصية في جامع الباشا وتلك التي نجدها بجامع الصباغين، وتحمل هذه الزخرفة كتابة في مستوى الأروقة المحيطة ببيت الصلاة والمطلة على الصحن تؤرخ البناء وتشير إلى السيد القسطل[5]، قد يكون المعلم البناء الذي شيد الجامع أو المعلم "النقاش على الجبس" الذي أنجز الزخرفة الجصية. والقسطلي من قشتالة بإسبانيا عائلة أندلسية؛ وتشير وثائقنا إلى أن بعض العائلات الأندلسية المهاجرة استحوذت منذ بداية القرن السابع عشر على بعض الحرف والمهن في مدينة تونس ومنها البناء والنقش على الجبس والرخام وصنع الجليز والفخار.

تغطي كذلك البلاطات الجليزية أقساما هامة من جدران الواجهات وبيت الصلاة والمدرسة والتربة؛ ويثبت التمعن في هذه الزخارف أن البلاطات جميعا متأتية من مدينة تونس رغم شبه بعضها بالجليز العثماني أو الجليز الإسباني أوالإيطالي. هذه المربعات المتنوعة من حيث الأصناف والموضوعات الزخرفية تضفي على جامع الباشا ألوانا تونسية متميزة.

يتميز الجامع أيضا بالكميات الهامة من الرخام المجلوب من إيطاليا والمستخدم في صنع الأعمدة والتيجان والأبواب والنوافذ وكذلك في كسوة المنبر وجانبا من المحراب. هذا الرخام بتيجانه التي تنتمي إلى ما يسمى بالنمط الدووري الجديد وخاصة كسوة المنبر التي استخدم فيها الرخام المحفور والمطعم بالحجارة الملونة التي ترسم موضوعات زخرفية نباتية أوروبية تعطي المعلم مسحة باروكية جلية._وكنا نعتقد أن هذا المنبر صنعه أسرى إيطاليين كانوا يعملون في ورشات الرخام الليبية أو التونسية، لكن تبين لنا بعد اكتشاف وثيقة جديدة في أرشيف مدينة جنوا أن مصنع رخام جنوي، وبطلب من الباشا، أرسل حرفيين إثنين وكميات من الرخام الملون لإنجاز هذا المنبر. ويفسر في نظرنا الشبة الكبير بين منبر جامع الصباعين ومنبر جامع الباشا بكون المعمل الجنوي الذي صنع منبر طرابلس هو نفسه الذي توجه إليه الحسينيون قبل ذلك بعشر سنوات لصنع منبر جامعهم. وخاصة أننا نعلم أن زوجة حسين بن علي، والجدة الكبرى لكافة حكام الدولة الحسينية، للاّ منانة، من أصل جنوي وكانت لها علاقات وطيدة بمدينتها الأصلية وبعائلتها.

[5] Ali Ben Sassi, 2014, p. 141-143.

صورة 10. جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس، 1737.

منبر يكسوه الرخام المحفور والمطعّم بأحجار ملوّنة تمثّل رسوما نباتية متأثرة بالفن الباروك السائد بإيطاليا في ذلك العصر. صنع هذا المنبر العجيب البديع إيطاليان قدما خصيصا من مدينة جنوة. أزيل المنبر الرخامي حاليا بعد أن تعرض للتخريب سنوات 2011 و2012.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

نشير أخيرا أن جامع الباشا يتميز عن سائر جوامع المدينة بكثرة الأضرحة التي تكمل المجمع المعماري وتجعل منه مجمعا جنائزيا بامتياز؛ ومع ذلك نص الوقف يشير عرضا إلى التربة ولكنه لا يذكر الوظائف المرتبة بها وخاصة قراء القرآن على الأضرحة مثلما هو الحال بترب مدينة تونس. ونلاحظ أن التربة ومواضع الدفن الملحقة بالجامع تغطي مساحة معتبرة من المركب المعماري وكانت تحتوي قبل الاعتداء عليها وتخريبها في السنوات الأخيرة، أكثر من مائة وأربعون قبرا، درسها بعناية علي بن ساسي في أطروحته حول الكتابات التاريخية في مدينة طرابلس خلال العهد العثماني. ولقد زارت أخت سفير إنجلترا ميس توللي خلال إقامتها بطرابلس فيما بين سنتي 1783 و1792 زارت الجامع والتربة وسجلت في يومياتها وصفا إجماليا للعناصر المكونة للمجمع المعماري وتوقفت عند التربة وقدمت وصفا شاملا، لا نجده في المصادر الأخرى، يتعرض للمبنى والقبور، وباقات الزهور والورود التي توضع على الأضرحة، والعطور والبخور التي تملأ المكان وتضفي عليه سحرا خاصا: "التربة مبنية بأكملها بأجمل أنواع الرخام، وفي الداخل ملئت بالأزهار النضرة الزاهية؛ وزينت جميع القبور بأكاليل الفل والياسمين وبباقات كبيرة من الزهور المختلفة، زهور البرتقال والآس والورد الأحمر والأبيض. جميع هذه الأكاليل والباقات تفوح بعبق لا يستطيع إدراك عطره من لم يتعود على ذلك في حياته اليومية. أغلب القبور من الرخام الأبيض، وبعضها مطعم بالرخام الملون. ويتميز قبور الرجال عن قبور النساء بالعمائم المنقوشة في الرخام والمنتصبة فوق الضريح"[6].

[6] اعتمدنا الترجمة الفرنسية (Miss Tully, 1819, p. 83-84.). هناك ترجمة عربية يمكن استعمالها أيضا بحذر (1984).

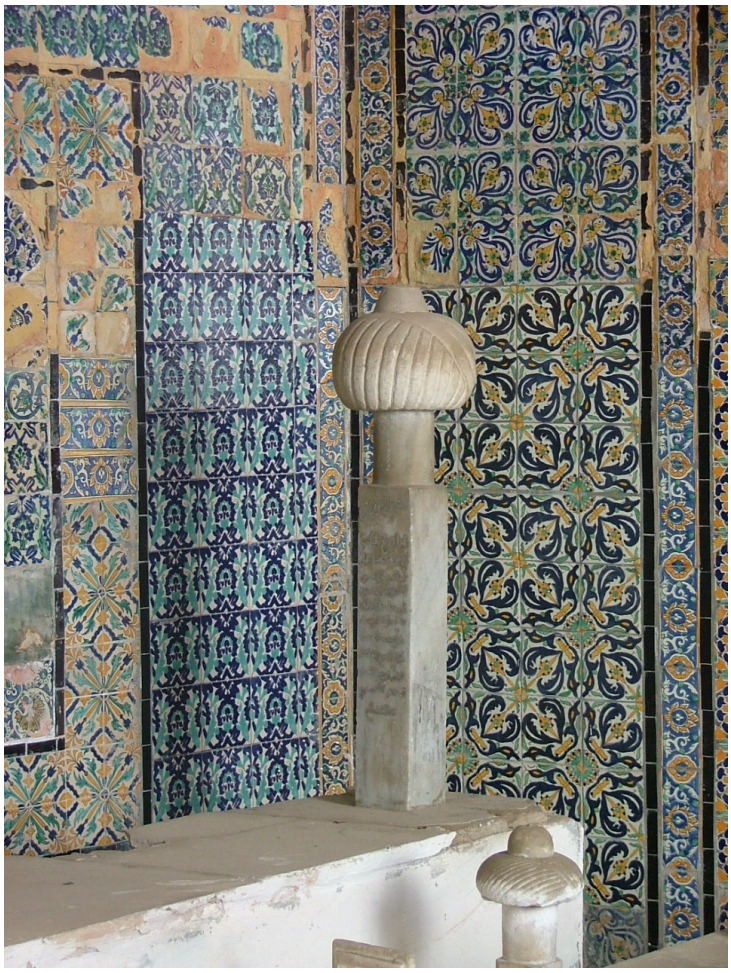

صورة 11. جامع أحمد باشا القرمانلي بطرابلس. القبور ذات طابع عثماني، وعددها 140 قبرا، نبشت جميعا وخربت وسويت بالأرض خلال السنوات 2011 و2012 .يحتفظ الجامع بكسوة جليزية على غاية من الجمال مستوردة من تونس، وهي من صنع القلالين.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ويبدو أن وضع الزهور على قبور أمراء وحكام الدولتين الحسينية والقرمانلية كان من الممارسات الشائعة أيضا بمدينة تونس؛ فقد ورد في وقف فاطمة حفيدة عثمان داي وزوجة حسين بن علي: "وعلى التربة التي تدفن بها أربعة قراء على قبرها، يقرؤون حزبين من كتاب الله تعالى في كلّ يوم، لكلّ واحد منهم ناصري في كل يوم، وأربعة أمطار زيتا في كل عام لوقد تربتها، وثمانية ريالات في كلّ عام يشترى بهم نوّار يوضع على قبرها، كل زمان وما فيه من ورد وياسمين وغيرهما، وعشرة ريالات في كلّ عام يشترى بهم دلاء وأحبل ومصالح ونشاشف وقناديل وحصر، وغير ذلك ممّا تحتاج إليه التربة المذكورة، وثلاثون ريالا في شهر رمضان، كل ليلة ريال يشترى بهم خبز ويفرّق بباب التربة المذكورة، خبزة بناصري لكل واحد، وذلك في كل عام على الدوام، وثلاثة ريالات يشترى بهم زلابية في مواسم رمضان، يتصدّق بها على الفقراء والمساكين، وفي ليالي المواسم في كل عام، وقدرها اثني عشر ليلة ..."[7]

[7] حبس فاطمة بنت أحمد حفيد عثمان داي على الجامع الجديد وعلى التربة التي تدفن بها وعلى القراء بجامع الزيتونة والجامع الجديد. أنظر كتابنا **تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا**، 2015، ص.344.

3. جامع يوسف صاحب الطابع بتونس

يوسف صاحب الطابع مملوك أصله من البغدان (مولدافيا) قربه حمودة باشا (1782-1814) وكلفه بوضع الخاتم على الوثائق الرسمية ومن هنا جاءت تسميته بصاحب الطابع، وسرعان ما أصبح الوزير الرئيسي والشخصية الأولى في البلاد بعد الباي. وفي نفس الوقت جمع الوزير القوي ثروة هائلة بفضل نفوذه السياسي ونشاطه التجاري في المتوسط، وكون إمبراطورية تجارية ومالية. وظف صاحب الطابع جانبا هاما من ثروته في إنشاء المباني الدينية والخيرية وأهمها جامع الحلفاوين بربض باب السويقة من مدينة تونس. وهو آخر معلم ديني ضخم يشيّد بتونس قبل الاستعمار الفرنسي. أشرف على تشييد الجامع ساسي بن فريجة أمين البناء، ابتدأت الأشغال سنة 1808 واستمرت لعدة سنوات ولم تنته حتى بعد قتل الوزير سنة 1815[8].

صورة 12. جامع يوسف صاحب الطابع بتونس، (1808-1814). أكبر مجمع معماري أنشأ بتونس خلال الفترة العثمانية.

المئذنة مثمنة على الذوق الشرقي.

المصدر: صورة جلال عبد الكافي 1990.

وتشير وقفية الجامع المسجلة في دفتر خاص بتاريخ 13 شعبان 11/1228 أوت 1813 "أنّ السيّد يوسف خوجة المذكور أنشأ جامعه البهيج النّضير العديم المثال والنّظير لإقامة الجماعات والجمعة والعيدين به، الكائن جوار الشّيخة مسيكة بالمحطب قرب الحلفاوين بربض باب السّويقة من محروسة تونس... وأنشأ أيضا مدرسة غربيّة الباب جوار جامعه المذكور من جوفيّه وحبّسها على سكنى من طلب قراءة العلم الشّريف بالمحروسة المذكورة، وأنشأ أيضا مدرسة شرقيّة الباب جوار المدرسة المذكورة أوّلا أعلاه من غربيّها وأعدّها مكتبا لقراءة القرآن العظيم وحبّسها على

[8] الترجمة الضافية ليوسف صاحب الطابع نجدها عند ابن أبي الضياف الذي عرف الوزير في صباه وكان أبوه مقربا من صاحب الطابع واشتغل كاتبا عنده. ابن أبي الضياف، ج. 7، 1990، ص. 89-100.
حول الجامع أنظر كتابنا **تونس مدينة عثمانية** (Ahmed Saadaoui, 2001, p. 231-285).

سكنى من طلب قراءة ذلك بالمحروسة المذكورة، وحبّس على ذلك حفظه الله تعالى رباعا وعقارات يصرف ريعها في مصالح ذلك على الوجه الذي سيذكر...".

وفي سياق ذكره للمصابيح العديدة التي توقد يوميّا في الجامع ورد ذكر بعض مكونات المجمع المعماري الديني ومنها مدرستين وميضأة وتربتن يسميها النص أضرحة. "وثلاثة أرباع الرّيال وخمسة نواصر في كلّ يوم لاثني عشر وقّادا معيّنين بالجامع المذكور لكلّ واحد منهم ثمانية نواصر في كلّ يوم أجرا عن إيقادهم مصابيح الجامع المذكور ومصابيح سقائفه الآتي بيان عددها ومصباح ضريح وليّ الله تعالى الشيخ سيدي مصطفى الكائن ضريحه (التربة التي دفن فيه أمين البناء الذي أشرف على تشييد الجامع) جوفي الجامع المذكور ومصباح ضريح ولي الله تعالي الشّيخ سيدي عثمان بن كرم الكائن ضريحه بلصق صحن الجامع المذكور (التربة التي دفن بها يوسف صاحب الطابع) ومصابيح المدرسة الّتي أنشأ بناءها السّيد يوسف خوجة المذكور جوار جامعه المذكور من جوفيه وحبسها على سكنى من طلب قراءة العلم الشريف بالجامع المذكور وبغيره من جوامع تونس وعّين لها شيخا وعين لسكناها ثلاثين طالبا يعمّرونها ومصباح سقيف وميضأة المدرسة المذكورة ومصباح المدرسة أيضا الّتي أنشأ بناءها غربي المدرسة المذكورة أولا وحبّسها على سكنى من طلب قراءة القرآن العظيم كلام ربنا القديم وعين لها مؤدّبا لإقرائهم القرآن بها ومصباح ميضأتها وسقيفها...".

صورة 13. جامع يوسف صاحب الطابع بتونس. استعمال مكثف للرخام الإيطالي.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

وتذكر الوقفية بعض عناصر المجمع المعماري ذات الصبغة الاقتصادية، ومنها عشرات الحوانيت والمخازن ووكالة، تسمى إلى اليوم فندق صاحب الطابع، وسوق يحمل إلى اليوم نفس التسمية. نورد من ضمنها "جميع الأحد عشر

حانوتا الشّرقيّات المفتح الكائنات تحت الجامع الجديد المبارك الآتي ذكره من ناحية الشّرق، ثمانية منها قبلي الباب الشرقي من الجامع المشار إليه، وثلاثة منها جوفي المخزن الشّرقي الباب الكائن فوق الماجل وتحت الجامع المذكور بابه بلصق الباب الشّرقي من الجامع المذكور"؛ "وجميع الوكالة المعدّة فندقا قبليّة الباب جوفيّ الجامع المذكور آنفا وغربي السّوق الآتي بيانه المشتملة على تسعة وأربعين بيتا ومحاض"؛ "وجميع السّوق المحدث البناء المشتمل على ثلاثة وخمسين حانوتا وله بابان قبلي وجوفي"، وغيرها من المباني. والملاحظ أن الوثيقة لا تذكر حمام الحلفاوين التابع للمجمع المعماري، وتؤكد مصادرنا أنه كان من أحباس الجامع، وذلك لأن الانتهاء من بنائه تم بعد تحرير نص الوقف.

تعدد بعد ذلك الوقفية مختلف العقارات المحبسة على الجامع وتوابعه من مدارس وترب، كما نجد بها معطيات دقيقة حول مختلف الوظائف والمرتبات: إمام الخمس ونائبه، الإمام الخطيب ونائبه، 4 خوجات (مؤذنين حنفية) ورئيسهم، 8 مؤذنين مالكية، 12 وقاد، 2 سقاء، مدرس تفسير، مدرس حديث، مدرس البخاري، مدرس علوم القرآن، 3 مدرس علوم الشريعة، وكيل الحبس، شاهد الحبس، شيخ المدرسة، مؤدب، 3 ميضاوي، وأكثر من 60 طالبا[9].

صورة 14 و15. جامع يوسف صاحب الطابع بتونس. المنبر وقبة المحراب تحليهما زخارف مستوحات من فن الركوكو الإيطالي.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

ويمثّل جامع يوسف صاحب الطّابع وحدة معماريّة أساسيّة ضمن مجمّع معماري متكامل يشتمل بالإضافة إلى المسجد على مدرستين وتربتين ووكالة وحمّام وسبيلين وعشرات الحوانيت والمخازن تفتح على السّاحات والشّوارع القريبة؛ هذا بالإضافة إلى فندق وحمام وسوق مغطّاة مغلقة ببابين تعدّ ثلاثة وخمسين حانوتا. ويقابل قصر الوزير المجمّع المعماري ويشرف هو الآخر على بطحاء الحلفاوين. تشكل المباني المختلفة حيا يلفت النظر لحجم تصميمه. ويتميز الجامع بثراء زخرفته الجصية والرخامية والجليزية. هذه الزخارف تحمل في طياتها نماذج تعكس مختلف التيارات الفنية التي انتشرت في البلاد، لذلك يتطابق تصميم الجامع مع التقاليد المحلية الإفريقية؛ أما الزخرفة

[9] أنظر كتابنا **تونس مدينة عثمانية** (Ahmed Saadaoui, 2001, p. 247-285).

الجصية، وبالرغم من الكثير من الحرية في الرسم والتنفيذ، فقد بقيت وفية للتراث الأندلسي المغربي؛ ويحيل المنبر الرخامي والمحفل الخشبي والمئذنة المثمنة على أمثلة مشرقية؛ وأخير وباعتبار الاستعمال المكثف للرخام الذي يحمل زخارف إيطالية يمكن تصنيف الجامع ضمن المعالم الباروك أو الركوكو.

وفعلا استخدم الوزير سفنه التجارية التي كانت تصدر السلع إلى إيطاليا لجلب الرخام لبناء جامعه؛ ويذكر ابن أبي الضياف أنه "خص الرئيس حسن المورالي بنقل الرخام إلى جامعه من القرنة"[10]؛ وتشير وثائق أرشيف القنصلية الفرنسية أنه اشترى محجر رخام بجبال كرارة للغرض[11]. وتشير دفاتر الأرشيف الوطني التونسي إلى المعطيات الإضافية المتعلقة بتوريد الرخام من كرارة[12]. ويؤكد ابن أبي الضياف، المؤرخ الذي عاصر بناء الجامع، أن الوزير بعد وفاته والانتهاء من الأشغال "أبقى في مخازنه من الرخام والآجر وآلات الرّم ما يبني جامعا"[13]. ولازال المعلم إلى اليوم شاهدا على هذا الاستعمال المكثف للرخام الإيطالي في كساء الأرضيات والجدران والمنبر وقبة المحراب وصناعة الأبواب والنوافذ والأعمدة والتيجان. وتحمل هذه المادة الرخامية موضوعات زخرفية تقليدية تميز فن الركوكو الإيطالي. ويتجلى ذلك في الزخرفة الدقيقة (أكاليل ومزهريات تحمل باقات الزهور) التي تزين المنبر وقاعدة قبة المحراب؛ وكذلك تلك التي تحلي تيجان الأعمدة والدعائم الجدارية (صدفيات وشعل وأهلة)؛ وحتى قبر الوزير يحمل زخرفة رقيقة متأثرة جدا بفن الركوكو؛ من ذلك صندوق القبر المكسو بالأغصان والوريدات المنحوتة على الطريقة الإيطالية.

صورة 16 و17. جامع يوسف صاحب الطابع بتونس. زُيّنت تيجان الأعمدة بزخارف روكوكو مميزة.

ويتسم كذلك قبر الوزير بزخرفة دقيقة للغاية متأثرة بشدة بفن الروكوكو الإيطالي.

المصدر: صور أ. السعداوي.

[10] ابن أبي الضياف، ج. 7، 1990، ص. 96.

[11] E. Plantet, 1893-1899, Vol. 3, p. 490.

[12] أ. و. ت.، دفتر 2339، ص. 26. يشير الدفتر أنه بتاريخ أول ذي الحجة 16/1224 فيفري 1809 استلم تاجر أوربي مختص في بيع الرخام 15300 ريال من الوزير.

[13] ابن أبي الضياف، ج. 7، 1990، ص. 6.

وبالرغم من غلبة الزخرفة الرخامية على جامع يوسف صاحب الطابع، ومجمل المركب المعماري الذي يحيط به، نجد به زخرفة جليزية هامة وجد متنوعة. صنعت أغلب بلاطات هذه الكسوة الجليزية في ورشات القلالين المجاورة لربض باب السويقة حيث الجامع، ومع ذلك فهي تحيل أحيانا من حيث الموضوعات على التقاليد المحلية أو العثمانية مع غلبة الأصناف الإسبانية والإيطالية وما تحمله من أشكال تنتمي إلى الفنون الأوروبية الباروك والركوكو.

4. جامع مصطفى قرجي بطرابلس

شيّد في أواخر الفترة القرمانلية (سنة 1831) وتأثّر في مخطّطه وبناءه وزخرفته بجامع أحمد باشا القرمانلي. ويتميز الجامع بثراء زخارفه وتنوع مصادرها ويعتبر لذلك من أهم معالم مدينة طرابلس.

مسيرة مصطفى قرجي تذكر بمسيرة يوسف صاحب. هو الآخر مملوك من أصل قورجي (جورجيا)، اشتراه يوسف باشا القرمانلي ثم أعتقه وقربه وزوجه من إحدى بناته ثم ولاه رئاسة ميناء طرابلس (سنة 1810) وبقي في هذه الخطة حتى نهاية العهد القرمانلي؛ وكان يمتلك بعض السفن التي تشتغل في التجارة والقرصنة وتمكن بذلك من جمع ثروة هائلة خصص قسما منها في البناء والتشييد.

نجد في يوميات حسن الفقيه معطيات دقيقة تسلط بعض الأضواء على مصطفى قرجي وتقدم معلومات دقيقة حول بناء الجامع، منذ انطلاق المشروع حتى انتهاء الأشغال، لم يقع توظيف هذه المعطيات من طرف الدارسين لتاريخ طرابلس ومعالمها.

صورة 18. جامع قرجي بطرابلس، شيّد في أواخر الفترة القرمانلية (سنة 1831) وتأثّر في مخطّطه وبناءه وزخرفته بجامع أحمد باشا القرمانلي.

المئذنة تتميز بشرفتين عن سائر المآذن.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

أورد حسن الفقيه في يومياته أن "يوم الأحد 22 ذي الحجة 1235 (6 أكتوبر 1820) بدأ مصطفى قرجي في تخريب الحوش والطاحونة التي بباب البحر؛ وذلك لأجل يبغي يديرهم جامع". وتواصلت اشغال البناء أكثر من عشر سنوات، ويذكر صاحب اليوميات أن أسطى البناء يوسف التركي توفي يوم 27 محرم 1241 (11 سبتمبر 1825)، "وكان توفي قبله الأسطى محمد باباني البناي، والاثنين كانوا اسطوات عنده في الجامع". ولا شك أن الرجلين كان من ضمن طاقم البناء المشرف على تشييد الجامع والمجمع المعماري. وكان أحدهما على الأقل من أصول تركية أو عثمانية. ويضيف حسن الفقيه أن رايس المرسى، وفي نهاية الأشعال، كلف الحاج سليمان القرباع بالإشراف على التحضيرات النهائية؛ وبعد أقل من أسبوعين تم تأثيث الجامع بالكامل وأصبح جاهزا لاستقبال الزوار والمصلين؛ ويوم الجمعة 13 محرم 1247 (24 جوان 1831)[14] "حضرت جماعة البلاد والمخازنية والعلماء والشيخ القاضي وصلوا في الجامع، وحضر طعام

[14]- أنظر مقالنا الصادر حديثا حول جامع قرجي (Ahmed Saadaoui et Ali Ben Sassi Cheib, 2024). أهم الدراسات السابقة تخطأ في تأريخ الجامع وتذكر سنة 1834 عوضا عن سنة 1831؛ نذكر أهمها أوريدجيما (Salvatore AURIGEMMA 1928, p. 261) وغاسبري ميسّانا (1998، ص. 1161) وعلي مسعود البلوشي (2006، ص. 333).

الطلبة والفقراء". من ناحية أخرى تؤرخ النقيشة التي تعلو الباب الشرقي للجامع المعلم بسنة 1246، وتنتهي هذه السنة الهجرية يوم 11 جوان 1831، مما يدل على أن اللوحة الرخامية كتبها النقاش في أواخر السنة الهجرية وأفتتح الجامع بعد ذلك بعدة أيام، في بداية السنة الموالية، حسب التاريخ الذي ورد في اليوميات التي تبقى المصدر الأوثق في نظرنا.

صورة 19. جامع قرجي بطرابلس. الأعمدة والتيجان منحوتة في الرخام الأبيض الإيطالي.

المصدر: صورة علي بن ساسي.

تقدم وقفية الجامع المدونة بتاريخ العاشر من رمضان عام ستين ومائتين وألف (24 سبتمبر 1844) هي الأخرى معطيات جديدة تتعلق بمدينة طرابلس وخاصة بحي باب البحر حيث شيد الجامع وتكشف أيضا الكثير من المعطيات حول مكونات المجمع المعماري والأنشطة التي يستقبلها. ورد في الوثيقة أن "أبا الثنا مصطفى قرجي، النسبة واللقب، ريس مرسى ثغر اطرابلس الغرب، شيد المسجد الجديد الغني بشهرته عن التحديد، المشتمل على مدرسة لتعلّم العلم والتعليم، وتلاوة القرآن العظيم..."؛ ثم يعدد النص العقارات المحبسة على الجامع والمدرسة، حوانيت ومخزن ودور وكوشة جير ومعصرة، وغيرها وأغلب العقارات نجدها داخل المدينة وخاصة بحي الباب الجديد. ومنها ما هو مندمج ضمن المجمع المعماري ومن ذلك "جميع الخمسة حوانيت الملاصقة للمسجد المذكور من الجوف، أربعة منهم عن يسار الداخل له والخامس عن يمينه، يحد الأول والثاني قبلة الجامع المذكور وشرقا الصومعة وجوفا طريق عام حيث المفتح وغربا فم الجامع، ويحد الثالث والرابع قبلة الجامع وشرقا طريق عام وجوفا كذلك حيث المفتح وغربا الصومعة، ويحد الخامس قبلة الجامع وشرقا فم الجامع وجوفا طريق عام حيث المفتح وغربا مطهرة وبير الجامع...".

حبس مصطفى قرجي جميع الأماكن والأصول المحدودة والمذكورة في الوثيقة ليكون ريعها "مصروفا في منافع الجامع المذكور من حصر وفرش وزيت ورزق إمام الأوقات به وخطيبه والذي يقرأ بالمحفل يوم الجمعة ومدرس ومؤذن والقيم والملاء للماء للمتوضئين به والمتولي لأوقاف الجامع المذكور والمخلص، وللطلبة الذين يدرسون العلم بمدرسة الجامع المذكور، وللمسمع يوم الجمعة وسائر ما يحتاج اليه الجامع المذكور من نحو قناديل وترميم وإصلاح."

ثم تحدد الوثيقة فيما بعد مختلف الأجور والمرتبات؛ "وقد عين المحبس المشار إليه، دام موفقا للخير معانا عليه، للإمام الراتب في الصلوات الخمس في كل شهر ثمانين قرشا اسلامبوليا وحوشا لسكناه، وهو الساكن به الإمام الآن، وللخطيب إمام الجمعة والذي يقرأ القرآن بالمحفل خمسين قرشا، وللمدرس ستون قرشا، وللمؤذن في الأوقات الخمس ثمانين قرشا، وللمسمع يوم الجمعة عشرة قروش، وللقيم وملاء الماء للمتوضئين به مائة قرش، ولطلبة العلم الذين يقرؤون بمدرسته خمسين قرشا، وللمتولي وهو الناظر ثمانين قرشا، وللمخلص أربعين قرشا، جميع ذلك بالقرش الاسلامبولي".

يعتبر جامع قرجي من أجمل جوامع طرابلس، ويقلد في عمارته جامع الباشا ويحمل نفس الخصائص: قباب قاعة الصلاة تحيل على العمارة الليبية الأصيلة؛ المئذنة المثمنة تقلد مئذنتي جامعي شائب العين وأحمد باشا ولكنها تفوقها علوا وتتميز بكونها تعلوها شرفتان عوضا عن شرفة واحدة، ويعتبر في التقاليد العثمانية أن تعدد المآذن في الجامع الواحد وتعدد الشرف في الصومعة الواحدة من العناصر التي تختص بها فقط الجوامع السلطانية.

صورة 20 و21. جامع قرجي بطرابلس. زخرفت اللوحات الرخامية التي تؤطر الأبواب والنوافذ والمحراب والمنبر بأشكال نباتية وأزهار أنجزت بالرخام المحفور والمطعم بالحجارة الملونة.

المصدر: صورة أ. السعداوي.

يتميز جامع مصطفى قرجي، مثل الجوامع الثلاثة التي سبقت في هذه الدراسة، بثراء زخارفه الجصية والخشبية والخزفية والرخامية. وتؤكد هذه العناصر الزخرفية الروابط المتينة بين تونس وطرابلس خاصة في مجال النقش على الجبس والحلية الجليزية، حيث تبين دراسة مختلف البلاطات التي تعترضنا في مختلف أقسام المجمع المعماري أنها جميعا من إنتاج مصانع القلالين بتونس، بالرغم من أن بعضها ينتمي إلى أصناف خزفية أوروبية، إسبانية وإيطالية، كانت تصنع في تونس ومنها تصدر إلى مختلف المدن المجاورة.

صورة 22. جامع قرجي بطرابلس. جميع بلاطات الحلية الجليزية التي تكسو الجدران من إنتاج مصانع القلالين بتونس.

المصدر: صورة علي بن ساسي.

وتؤكد من ناحية أخرى العناصر والزخارف الرخامية انفتاح طرابلس على السوق والفنون الأوروبية وخاصة الإيطالية منها. وتكسو المعلم موادا وأشكالا جديدة، تذكر بجامع الباشا وتختلف عنها في نفس الوقت. فقد زخرفت اللوحات الرخامية التي تؤطر الأبواب والنوافذ والمحراب بأشكال نباتية وأزهار أنجزت بالرخام المحفور والمطعم بالحجارة الملونة، تتشكل الرسومات من مزهريات وأغصان ملتوية تحمل أوراقا وزهورا متعددة الألوان منها الأسود والرمادي والأحمر والأصفر. كذلك يمثل المنبر تحفة فنية فريدة في العمارة الليبية؛ ويتميز أيضا بكسوته الرخامية المحلاة بالرسومات المنجزة بالحجارة الملونة والتي عمادها المزهريات والأغصان المرصعة بالأوراق والأزهار. ويتميز منبر جامع قرجي عن منبر صاحب الطابع بالحلفاوين بتعدد الألوان، مع ذلك يبدو لنا المنبر الثاني، ورغم غياب الألوان فيه، أكثر إتقانا في الإنجاز وذلك باعتماده نقوشا بارزة دقيقة وثيقة الاتصال بالفن الباروكي.

ألحق مصطفى قرجي بجامعه مدرسة صغيرة تعد 13 بيتا تنتظم حول صحن محاط بأروقة أقواسها محمولة على أعمدة من الرخام الأبيض الإيطالي. وبالرغم من صغرها كانت هذه المدرسة تعتبر من أهم مدارس طرابلس. وعلى عادة الحكام العثمانيين ألحق المؤسس بالجامع تربة صغيرة ذات أبعاد متناغمة ومتناسقة، شيدت وزخرفت بمواد نادرة وثمينة؛ وتعد بذلك هذه التربة جوهرة فنية تمثل تماما أرقى ما أنجزته العمارة والزخرفة الطرابلسية خلال نهاية العصر القرمانلي.

صورة 23. جامع قرجي بطرابلس. التربة جوهرة فنية تمثل تماما أرقى ما أنجزته العمارة والزخرفة الطرابلسية خلال نهاية العصر القرمانلي. شواهد القبور تحمل طابعا إسطنبوليا جليا. نبشت الأضرحة وتعرض المعلم للنهب والتخريب سنوات 2011 و2012.

المصدر: صورة علي بن ساسي..

من خلال هذه النماذج حاولنا دارسة مميزات العمارة الدينية والرسمية في الإيالتين والتعرف على نوعية العلاقة التي كانت تربط البلدين في مجال العمارة والفنون؛ وما هي نقاط التماثل والاختلاف بينما في هذا المجال؛ وماهي هي طبيعة علاقتهما بالعالمين العثماني والمتوسطي اللذين ينتميان إليهما.

استنتاجات وخاتمة

نؤكد في الأخير على العلاقة الوطيدة بين مدينتي تونس وطرابلس في مجال العمارة وفنونها. وتبين لنا بوضوح أن طرابلس كانت أقرب المدن من توتس في هذا المجال، كانت أقرب من مدن الجوار مثل قسنطينة وعنابة والجزائر، وأنا أزعم أنها كانت أقرب من كبريات المدن التونسية، مثل القيروان والكاف وحتى باجة التي لا تبعد عن العاصمة سوى قرابة مائة كيلومتر. ونفسر ذلك بكون المدينتين، تونس وطرابلس، كانت لهما وضعية إدارية وسياسية متشابهة (عاصمة إيالة مغاربية بعيدة عن المركز)، ولعل الأهم هو سهولة نقل مواد البناء الثقيلة بيسر عبر البحر والسفن بين المدينتين، في حين يصعب ذلك على ظهر الدواب، ويتحدث الصغير الباجي في **المشرع الملكي** بإطناب عن الصعوبات التي تعترض نقل مواد البناء على ظهور البغال من تونس إلى باجة لتحصين المدينة ولتشييد بعض المباني التابعة لحكام باردو في عهده.

تبين لنا كذلك ومن خلال دراسة نماذج من وثائق الأحباس المتعلقة بالجوامع الأربعة والمجمعات المعمارية التي تندرج ضمنها أن "الأوقاف الكبرى"، في كلا المدينتين، هي عبارة عن عمليات عقارية واسعة، ساهمت في دفع حركة التعمير والتشييد. وأثرت هذه المشاريع في الأحياء التي أنجزت بها، وكانت المجمعات الأربعة المدروسة عبارة عن أقطاب تعمير غيرت تماما المشهد المعماري في الأحياء التي تنتمي إليها؛ وهي على التوالي حي الصباغين وحي الحلفاوين بمدينة تونس وحي الأسواق الرئيسية وحي باب البحر بمدينة طرابلس.

كما حاولنا في هذه الورقة التأكيد على أهمية وثائق الأوقاف في دراسة تاريخ التعمير والمعمار بكلا البلدين؛ والاضافات الكثيرة التي تقدمها مثل هذه الوثائق. وندعو لذلك إلى دراسة ونشر هذه الوثائق ووضعها على ذمة الباحثين.

كذلك بينت دراسة الجوامع الأربعة العلاقات الوطيدة التي كانت تجمع بين الدولتين الحسينية والقرمانلية وبين المدينتين تونس وطرابلس. ويعكس تاريخ وعمارة هذه المجمعات التنوع العرقي والديني الذي كان يميز عاصمتي الإيالتين العثمانيتين؛ ولتوضيح ذلك نكتفي بالتذكير بأصول مؤسسي الجوامع الأربعة، وهم على التوالي: حسين بن علي أصوله من جزيرة كريت اليونانية؛ وأحمد باشا أصله من قرمان ببلاد الأناضول؛ ويوسف صاحب الطابع مملوك أصوله من البغدان (مولدافيا)؛ وأخير مصطفى قرجي هو الآخر مملوك من أصول جيورجية.

تكشف هذه المعالم أيضا عن تبلور عمارة تونسية وليبية متميزة ومنفتحة على العالم العثماني وعلى الأقاليم المجاورة، خاصة المتوسطية منها. يتجلى الانفتاح على العالم العثماني الشرقي من خلال العديد من العناصر نذكر منها شكل المئذنة، واعتماد المنبر المبني، ومحفل المبلغين أو الخوجات الأتراك، وإلحاق الترب بالجوامع، وشواهد القبور المعممة. أما الانفتاح على العمارة والفنون الأوروبية فهو يتجلى خاصة من خلال استخدامات الرخام الذي يعتبر أهم عنصر

زخرفي في هذه المعالم ويضفي على هذه المباني مسحة إيطالية مؤكدة؛ رأينا ذلك في التيجان وكذلك في كسوة المنابر الرخامية؛ وهي جميعا تحيل على فنون عصر النهضة وخاصة منها الطرازين الباروك والركوكو. ويبدو أنه خلال العهدين الحسيني والقرمانلي تفوقت التأثيرات الإيطالية على التأثرات العثمانية وذلك لقرب شبه الجزيرة من العاصمتين وكذلك لأهمية الرخام المستعمل في بناء وزخرفة المباني الرسمية؛ ومصدر جل الرخام مقاطع كراره، ونحت ونقش بأيد إيطالية.

البيبليوغرافيا

باللغة العربية

البلوش علي مسعود (وآخرون)، **موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا**، ج 2، طرابلس 1989.

البلوش علي مسعود، **تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهدين العثماني والقرمانلي 1551-1911**، طرابلس 2006.

حسن الفقيه حسن، 2001، **اليوميات الليبية**، ج 1و2، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، طرابلس

خوجة حسين، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تونس 1972.

السعداوي أحمد، 2007، « الفنون والعمارة في بلاد المغارب في العصر العثماني »، فصل من **الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية**، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، المجلد الخامس، ص. 585-617.

السعداوي أحمد، 2015، **تـونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705-1756) : وثائق أوقاف من العهد الحسيني**، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس.

السعداوي أحمد، **2017**، «جوامع عثمانية في بلاد المغارب: دراسة في صلة المركز بالأطراف في مجالي العمارة والفنون »، **السبيل : مجلة التّاريخ والآثار والعمارة المغاربية** [نسخة الكترونية]، عدد 03،

URL : https://al-sabil.tn/?p=10915

القرقني إلهام إبراهيم، 2016، **منشئات العهد القرمانلي في مدينة طرابلس وزخارفها الفنية (1711-1835)**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

ميسانا غاسبري، **المعمار الإسلامي في ليبيا**، بيروت 1998.

نافع حنان محمد، 2016، **مدينة طرابلس في العهد العثماني الأول (1551-1711) : دراسة معمارية**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

باللغات الأجنبية

ÁLVAREZ Dopico Clara Ilhem, 2010, *Qallaline. Les revêtements céramiques des fondations beylicales tunisoises du XVIII^e siècle.* Thèse de docteur, Université Paris IV-Sorbonne.

AURIGEMMA Salvatore, 1927, *La Moschea di Ahmad al-Qaramanli in Tripoli*, Milan.

AURIGEMMA Salvatore 1928, « La moschea di Gurgi », *Africa Italiana*, 1928, n°1 p. 275–285.

BEN SASSI Ali Cheïb, 2014, *Les inscriptions de Tripoli d'Occident à l'époque ottomane (1551-1911) : étude épigraphique et historique, thèse de doctorat en Histoire de l'Art*, Université d'Aix-Marseille.

DHIF Sofien, 2018, *Les influences ottomanes dans l'architecture religieuse des capitales des régences maghrébines du XVI^e au XIX^e siècle*, thèse de doctorat en sciences du Patrimoine, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis.

DHIF Sofien, 2018, « L'architecture religieuse de Tripoli à l'époque Karamânlî (1711-1835). Genèse d'une mosquée « hétéroclite », *Al-Sabîl : Revue d'Histoire, d'Archéologie et d'Architecture Maghrébines* [En ligne], n°5, Année 2018.

URL : http://www.al-sabil.tn/?p=16972

MESSANA Gaspare, 1977, *Originalité de l'architecture musulmane libyenne*, Maison arabe du livre, Tunis-Tripoli.

PLANTET Eugène, *Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour (1577-1830),* Paris, 1893-1899, 3 vol., XIVI-654p., XLVII-784p. et LXXXII-734p.

SAADAOUI Ahmed, 2001, *Tunis, ville ottomane : trois siècles d'urbanisme et d'architecture*, Centre de Publication Universitaire, Tunis.

SAADAOUI Ahmed, 2002, « Le marbre d'Italie dans l'architecture de la ville de Tunis à l'époque ottomane », *Architectures italiennes de Tunisie*, édit. Finzi, Tunis, p. 64-91.

SAADAOUI Ahmed, 2011, « Les minarets octogonaux au Maghreb ottoman : origine et filiation », *Arab Historical Review for Ottoman Studies*, t. 22, n°43, p. 85-110.

SAADAOUI Ahmed, 2021 (sous la direction), *Les couleurs de la ville : faïence et architecture à Tunis*, CPU et LAAM, Tunis.

SAADAOUI Ahmed, 2021, « La mosquée d'Ahmad Pacha Qaramanli et son waqf, un monument représentatif des arts architecturaux de la Tripolitaine ottomane », *Al-Sabîl : Revue d'Histoire, d'Archéologie et d'Architecture Maghrébines* [En ligne], n°11.

URL : http://www.al-sabil.tn/?p=20187

SAADAOUI Ahmed et BEN SASSI CHEIB Ali, « La mosquée Gurgi à Tripoli et son waqf. Un monument emblématique de la fin du règne des Qaramanlis », Al-Sabîl : Revue d'Histoire, d'Archéologie et d'Architecture Maghrébines [En ligne], n°17, Année 2024.

URL : https://al-sabil.tn/?p=13353

TULLY Miss, 1819**,** *Voyage à Tripoli, ou relation d'un séjour de dix années en Afrique*, traduit de l'anglais par J. Mac Carthy, Paris.